الفصل السادس

نظرية في الحضارة

فكّر مالك بن نبي في الوضع المتدني الذي تعيشه أمته، وراجع محاولات النهوض السابقة وتياراتها، فانتبه إلى عمق المشكلات التي تعانيها وإلى أي مدى تمتد جذورها في مكوّناتها التاريخية والثقافية، ولذلك فهو لم يستخدم - مثل غيره من المفكرين - المصطلحات الشائعة التي فقدت شحنتها الدلالية مثل النهضة والترقي والتقدم؛ وإنما استخدم - عن عمد وتدبر - مصطلح **الحضارة**، الواسع الشامل. وقد أدرج مؤلفاته، بما فيها سيرته الذاتية **مذكرات شاهد القرن** وكتابه **الظاهرة القرآنية** تحت عنوان فرعي هو **مشكلات الحضارة**، مما يدل على أن ظاهرة الحضارة هي الفكرة الأساسية التي تتمحور حولها أفكاره الاجتماعية والثقافية والتربوية، بل حتى السياسية والاقتصادية. وكانت هي المدخل المنهجي الذي اتخذه بن نبي لبحث واقع المجتمع والأمة، مؤكداً أن «مشكلة أي شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته»[1].

وقد قادته هذه المقدمة المنطقية إلى تتبع أسباب صعود الحضارات الإنسانية وأفولها مستفيداً من أفكار ابن خلدون وكسرلنج وشبنجلر،

---

(١) شروط النهضة: ١٩.

obeikandl.com

وجيزو، وولتر شوبرت، وغيرهم. مع التركيز على الحضارة الإسلامية عامة، وعلى مرحلة أفولها خاصة؛ فوجد أن ذلك الأفول قد أدى بالمسلمين إلى الوقوع تحت سيطرة أوروبا في القرن التاسع عشر، ليكون ذلك الاستعمار الديناميت الذي نسف عالم ما بعد الموحدين الموسوم بالصمت والأحلام والخمول[١]. عند ذلك وجد المسلم نفسه مضطّراً إلى إحداث تغييرات ما في نمط حياته بما يتفق مع شرائط الحياة الاجتماعية الجديدة، خلقياً واجتماعياً.

يتطلب كل تغيير اجتماعي، في رأي بن نبي، العمل على الانتقال بالفرد من كونه فرداً «إلى أن يصبح (شخصاً)، وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع، إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع»[٢]؛ أي تحويله من مجرد كتلة من القدرات الفطرية المتشابكة، إلى شخصية متنامية وإلى ذات تعي هويتها الاجتماعية وتنتظم في إطار أفكار وسلوك متعارف عليها. ومن هذه الزاوية فإن **عالم الأشخاص** يشكّل عنصراً مهماً في العملية الحضارية؛ حيث تتفاعل وتنمو في وسطه وبواسطته الأفكار؛ المتوارث منها والمبتدع، لتصنع **عالم الأشياء**، الذي يسجله تاريخ الحضارات الإنسانية. ويضرب بن نبي لذلك مثلاً بألمانيا التي حطمتها الحرب العالمية الثانية، فوجدت نفسها فاقدة لمقوماتها باعتبارها دولة، عندما انهارت جميع بناها التحتية، وفقدت عالم أشيائها الذي صنعته أجيال متعاقبة، وهنا وجد الشعب الألماني أنه «لم يعد يملك لمواجهة مشاكله إلا عضلاته وأفكاره، أو بعبارة أخرى طاقته الحيوية وثقافته»[٣]. وبسبب وعيه بأبعاد هذه الحقيقة، استطاع الشعب الألماني في مدة محددة، ووفق خطة

(١) وجهة العالم الإسلامي: ٤٨.
(٢) ميلاد مجتمع: ٣١.
(٣) آفاق جزائرية: ٨٥.

مدروسة أن يعيد بناء بلده وأن يستعيد مكانته بين الشعوب والدول الأوربية الأخرى.

وقف بن نبي عند هذا النموذج من أجل التدليل على أن المجتمعات التي تعتمد على أفكار محفّزة من داخل منظومتها الثقافية الخاصة تستطيع بناء عالم أشيائها، وشحذ طاقاتها المعنوية والبشرية لتدخل تلقائياً في دورة حضارية جديدة. وبالمقابل، فإن المجتمعات التي تستورد أشياء حضارة أخرى ظناً منها أن ذلك سيؤدي بها إلى إنشاء حضارة مماثلة قد باءت بالإخفاق، وهذا ثابت تاريخياً.

ماهية الحضارة

يستطيع المطلع على فكر بن نبي أن يلمس حرصه على تعريف مصطلحاته ومفاهيمه الأساسية التي تدور حولها تأملاته وتحليلاته. ولا شك أن لخلفيته العلمية وانضباطه المنهجي، بسبب دراسته الهندسة، أثراً في صياغة هذه التعريفات في صورة مختزلة حيناً، وفي إطار من الشرح والتحليل، أو المقارنة والمقابلة حيناً آخر. ونجد أنه قد عرّف مصطلح الحضارة من عدة جوانب؛ تاريخية وثقافية واجتماعية ونفسية ووظيفية.

فالحضارة من ناحية تاريخية؛ أي من ناحية تكررها بصفتها ظاهرة في التاريخ الإنساني هي عبارة عن «تنظيم معين للمجتمع على قواعد أخلاقية يجعله يبلغ مستوى القدرة على مواجهة جميع أعبائه بواسطة وسائل تعدّ منقوصة على وجه الإجمال، إذا قارنّاها بالوسائل التي تقع في حوزة بلدان أخرى نامية»[1]. وتحدد تلك القواعد الأخلاقية خصوصيات تلك

(١) السابق: ٥٥.

الحضارة وتميزها عن غيرها، وليست هذه القواعد في جوهرها سوى الفكرة الدينية التي سبق أن اعتبرها بن نبي **المركب** الذي تتولد عنه الشرارة الباعثة للحياة في باقي مكونات الحضارة. وعلى هذا الأساس فالحضارة ليست سوى «إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع ما، قبل التحضر، الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ، فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقاً للنموذج المثالي الذي اختاره. وعلى هذا النحو تتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل يتحكم بدوره في جميع خصائصه التي تميزه عن الثقافات الأخرى والحضارات الأخرى»[١]. لكنّ هذا التميز لا يتأتى من مجرد تميّز أفراد المجتمع كبشر وكتاريخ وثقافة، ذلك أن الحضارة «ليست كل شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية في أي مجتمع كان، ولكنها شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية، بحيث يجد هذا الشكل نوعيته في استعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة معينة، ليس المجتمع المتخلف في حالة تكيف معها لا من حيث رغبته، ولا من حيث قدرته، أو بعبارة أخرى، لا من حيث أفكاره ولا من حيث وسائله»[٢]. فالقيام بوظيفة معينة إذن - أي بلوغ هدف مدروس - هو المعيار الأساسي للتوجه الحضاري في السياق الثقافي والاجتماعي والتاريخي، «فالحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة أو مهمة معينة»[٣]، وهي من هذا المنظور تستلزم انخراط قوى المجتمع كله في التوجه نحو ذلك الهدف أو القيام بتلك الوظيفة، وبدرجة عالية من الفاعلية، ذلك «أن إرادة المجتمع وقدرته تضفيان على وظيفة الحضارة موضوعية وفاعلية. أي إن جملة العوامل المعنوية والمادية اللازمة لتحقيق تقدم الفرد، تصبح موضوعية، وذلك بأن تتحوّل إلى سياسة وتشريع فيمثلان عالم الأفكار في هذا المجتمع على

(١) تأملات: ١٩٨.
(٢) آفاق جزائرية: ٧٧ - ٧٨.
(٣) مشكلة الأفكار: ٥٠.

الصعيد الاجتماعي والأخلاقي تمثيلاً مباشراً»[١]. وهذا يعني أن هذه السياسة وتلك التشريعات تصبح نتاجات طبيعية لكل مجتمع يتقدم في طريق حضارته؛ لأن الحضارة من وجهة نظر وظيفيَّة هي «مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدِّم لكل فرد من أفراده، وفي كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه»[٢]، فهناك تبادل وتوازن بين مصالح الفرد ومصالح المجتمع، بحيث تنتظم هذه المصالح وفق شروط أخلاقية تمليها ثقافة المجتمع ومكونات ضميره، وشروط أخرى مادية تفرضها الخطة الموضوعة لصعود المجتمع في سلم التطور؛ وهو ما يجعل الحضارة في الواقع «جملة من العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفّر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه»[٣].

لقد أعطى بن نبي أهمية متساوية للعناصر المادية وغير المادية في الحضارة، ولعله يمكننا القول بأنه قدّم الأخيرة على الأولى في معظم الأحيان؛ وذلك لأنها ناتجة عنها ومتفرعة منها. ويتضح من تعريفاته أنه لا يرى الحضارة كياناً مادياً أو فنياً تقنياً خالصاً، بل يراها كلاً منصهراً من العناصر المعنوية والمادية ذات العلاقات العضوية المتشابكة. وهو يعطي أهمية خاصة للعنصر الأخلاقي الذي يعتبره محركاً للفعالية وأساساً لشبكة العلاقات - الاجتماعية الثقافية - في المجتمع، «فالمبدأ الأخلاقي يقوم بالضبط ببناء عالم الأشخاص الذي لا يتصور بدونه عالم الأشياء ولا عالم المفاهيم»[٤] ومع ذلك، فقد كان بن نبي عرضة لسوء الفهم؛ حين أوّل

(١) السابق: ٥١.
(٢) آفاق جزائرية: ٣٨.
(٣) مشكلة الأفكار: ٥٠.
(٤) حديث في البناء الجديد: ٧٢.

أحد الكتاب تعريفاته للحضارة بأنها مادية، وأنها أقرب إلى تعريف المدنية منها إلى تعريف الحضارة[١]. ولعل استعمال بن نبي لمصطلح (الضمانات الاجتماعية) في بعض تعريفاته هو السبب في سوء الفهم ذاك، إذ يبدو أن الكاتب قد فسّر مصطلح الضمانات تفسيراً اقتصادياً فربطه بمبدأ التوزيع العادل للدخل القومي، ووصله بمفهوم الحاجات الأساسية للإنسان الذي سبق أن تبنته هيئة الأمم المتحدة مصطلحاً مقابل مصطلح الضمانات. ولكنَّ ذلك المفهوم نفسه ما لبث أن خضع لبعض التغييرات التي فرضتها ظروف إقليمية وعالمية. ولذلك فقد نصت هيئة اليونسكو في إحدى وثائقها على أنه لا حدود لاتساع حاجات الإنسان وتنوعها، فهي لم تعد مقتصرة على الجانب المادي، وعليه فلابد من النظر إلى الطموحات الإنسانية والمصالح الاجتماعية والتطلعات الروحية على أنها ضرورات بشرية أيضاً[٢]. وهكذا نجد أن أفكار بن نبي قد سبقت هذه الوثيقة؛ إذ رأى أن الضمانات - بكل أنواعها - تقع في دائرة الحضارة؛ فاحترام الإنسان وتوفير الأمن له على درجة متساوية من الأهمية مع تأسيس المدارس وبناء المستشفيات وتوفير العمل[٣]. وفي هذا الصدد يجدر التذكير بالأولوية التي يحتلها **عالم الأفكار** في فكر بن نبي على عالمي **الأشخاص والأشياء**، إذ أكد أكثر من مرة على أن أزمة العالم المتخلف ليست بسبب عدم امتلاكه للأشياء، التي هي نتاج حضارة، بل بسبب افتقاره إلى الأفكار، التي هي روحها.

---

(١) علي القريشي: "مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وسيد قطب"، مجلة **الهلال**، أيلول/ سبتمبر ١٩٨٦م، ١٢١.
تقرير صادر من اليونسكو، فرنسا، ١٩٨٢، ١٧٨.

(2) Nicolai Lapin and Rodovan Richta, "Developed Socialism as a Real Society Centered on Human Welfare", **Different Theories and Practices of Development**.

(٣) **آفاق جزائرية**: ٣٨ - ٣٩.

وفي سياق البحث في جوهر الحضارة، وتبين شروطها وسننها يرفض بن نبي اعتبار علم الإنسان (الأنثربولوجيا) أن «كل شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية في أي مجتمع كان»[١] من المجتمعات النامية والمتخلفة نوعاً معيناً من الحضارة؛ إذ إن ذلك يتناقض مع استقراءات الواقع والتاريخ ومع تفاصيل تصورات الحضارة في فكر بن نبي. وهو يرد على هذا المفهوم الأكاديمي بقوله: «فإذا كان شكل الحياة الذي ورثته هذه البلاد من عهد القابلية للاستعمار والاستعمار يمثل (حضارة) فإن السؤال الذي طرحناه سابقاً [ماهي الحضارة؟] يصبح زائداً وبلا طائل»[٢]، وبالإضافة إلى ذلك فقد أنكر على الأنثربولوجيين تصورهم لوجود (مجتمع بدائي) و(ثقافة بدائية) و(حضارة بدائية)، بل رفض إطلاق اسم مجتمع على التجمعات البشرية البدائية[٣].

فالحضارة في أبسط تعريفاتها، ليست، في رأي بن نبي، (كومة) من الأشياء المختلفة والمتنوّعة، وإنما هي (كل) منسجم من الأشياء والأفكار، ومن العلاقات والمنافع والمسميات، وهي بناء وهندسة وتجسيد لفكرة أو مثل أعلى[٤]. ولذلك فلكل حضارة في التاريخ سماتها المميزة، «وكل دورة محدودة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معيّن، فهي **حضارة بهذه الشروط**»[٥]. ولهذا فمن المنطقي أنّ «الحضارة هي التي تكوّن منتجاتها وليست المنتجات هي التي تكوّن الحضارة إذ من البدهي أن الأسباب هي التي تكوّن النتائج وليس العكس»[٦]. وعلاوة على ذلك،

---

(١) **آفاق جزائرية**: ٧٧.
(٢) السابق: ٢٦.
(٣) انظر: **حديث في البناء الجديد**: ٧٣. وانظر كذلك: **ميلاد مجتمع**.
(٤) **الفكرة الإفريقية الآسيوية**: ٧٩.
(٥) **وجهة العالم الإسلامي**: ٢٦.
(٦) **حديث في البناء الجديد**: ٩٩.

فإن الحصول على جميع منتجات حضارة ما عملية مستحيلة في حد ذاتها، كماً وكيفاً، وهي لو تحققت - جدلاً - فإنها لا تصنع حضارة؛ لأن الحضارة: «لا تبيعنا روحها وأفكارها وثرواتها الذاتية وأذواقها، وهذا الحشد الهائل من الأفكار والمعاني التي لا تلمسها الأنامل... [والتي] بدونها تصبح كل الأشياء التي تبيعنا إياها فارغة دون روح وبغير هدف»[١].

شروط الإقلاع الحضاري

عندما بحث بن نبي عن إمكان دخول العالم الإسلامي دورة جديدة يعود بها إلى درب الحضارة ويجدد بها تاريخه التليد، أكّد حقيقة هامة وهي أنه لكي يصل أي مجتمع إلى أهدافه في إطار معطيات الزمان والمكان، فإن عليه أن يدرك مكانه في التاريخ، وأن يفهم قوانين النهضة والانحطاط؛ ذلك أن علاج المشكلات يرتبط بعوامل تاريخية واجتماعية تنتمي إلى دورة حضارية بعينها، «فالفرق شاسع بين مشاكل ندرسها في إطار الدورة الزمنية الغربية، ومشاكل أخرى تولدت في نطاق الدورة الإسلامية»[٢]، وبناء على مفهوم انتماء مشاكل كل مجتمع إلى دورته الزمنية الخاصة فقد حرص على تأكيد أن مشكلات العالم الإسلامي وقضاياه التي يناقشها في كتبه لا تنتمي إلى عالم الخمسينيات من القرن العشرين الميلادي، وإنما تختص بعالم الستينيات من القرن الرابع عشر الهجري[٣]، وهو توقيت يسجّل نقطة في تطور تاريخي معيّن ترجع إليه مشكلات العالم الإسلامي المختلفة، والتي تسمى (مشكلة جزائرية) هنا

(١) شروط النهضة: ٤٣.
(٢) السابق: طبعة ١٩٩٣م، ٥٣.
(٣) السابق.

و(مشكلة جاوية) هناك، في حين أنها في الحقيقة (مشكلة إسلامية) بدأ تسلسلها منذ الهجرة، ومعظمها منذ صفين التي نتج عنها جميع أنواع التمزق والمتناقضات السياسية التي أصابت العالم الإسلامي[١]. ولذلك فهو يرى أن مشكلة العالم الإسلامي هي في حقيقتها واحدة، ليس في أشكالها السياسية وإنما في جوهرها الاجتماعي؛ وعليه فليس من قبيل المصادفة ظهور شخصية الحاوي في كل من مراكش وسمرقند، يجمّع حوله الأطفال، ملوّحاً لهم بثعابينه[٢].

أكّد بن نبي أكثر من مرة أن للمشكلات الاجتماعية خصائص تاريخية، وعليه فمن غير الجائز لأحد أن يضع الحلول ويقترح المناهج مغفلاً مكان أمته في التاريخ، إذ يصبح استيراد الحلول إضاعة للوقت وجالباً للضرر؛ «إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار»[٣]؛ لأن الحلول المستعارة من البلدان المتقدمة لا تحدث التأثير نفسه الذي أحدثته في بيئتها الأصلية، ذلك أن المجال الاجتماعي يختلف عن المجال الميكانيكي مثلاً، حيث يضم الأول كل ما يتصل به من عناصر لا تُحس ولا توزن ولا يمكن تعريفها، وهي عناصر لا يستغنى عنها عند تطبيقها في بيئتها الأصلية. وهنا يعود بن نبي إلى استخدام مثال الماء فيشبه تلك الحلول بعناصره المتكونة من مادتي الأكسجين والهيدروجين بنسب معينة، وتكوّن تلك العناصر صيغة سليمة من الناحية التحليلية، ولكن الحقيقة أنه لا يمكن الحصول على الماء بمجرد خلط العنصرين، إذ يظلّ ينقصهما **المركب** الذي هو عنصر جوهري لم تذكره صيغة التحليل. وبالمثل فإن الحلول ذات الصبغة الاجتماعية، المقتبسة من بلاد ثبتت فيها

(١) **وجهة العالم الإسلامي**: ٣٥.
(٢) السابق.
(٣) **شروط النهضة**: طبعة ١٩٩٣م، ٥٣.

صلاحية تلك الحلول، تتضمن عناصر مكملة أو مركبة لا تأتي معها ولا يمكن حصرها أو فصلها عن روحها؛ أي محيطها الذي ولدت فيه[١]. وقد سبق أن أدرجنا رأي بن نبي في إمكان الاقتباس من الحضارة الغربية السائدة اليوم، على اعتبار أن الحضارات لا تتكون في نطاق منعزل وإنما هي تأخذ وتستفيد من غيرها. لكنه لم يقر الاقتباس المطلق وإنما وضع له شروطاً حين شبهه بعملية نقل الدم لجسم مريض؛ إذ لا يمكن تزويد المريض بأي نوع من الدم وإنما لابد من مراعاة فصيلة دمه الخاصة. ويرى بن نبي أن ما نلمسه في العالم الإسلامي من فوضى في الأفكار وتخبط في السير وإهدار للوقت والطاقات، ليس سوى نتيجة لفقدان ذلك العالم صلته بنماذجه المثالية التي كوّنت منظومته الثقافية الأصلية، والتي تقوم مقام فصيلة دمه. كما أنها نتيجة لعدم تمكن ذلك العالم من إقامة التواصل المثمر مع عالم الغرب الثقافي مثلما فعلت اليابان مثلاً؛ وعليه فالعالم الإسلامي قد قام بخيانة نماذجه المثالية وأفكاره الجوهرية من جهة، كما قام بخيانة الأفكار التي استعارها من ثقافة مغايرة من جهة أخرى. فوضع العالم الإسلامي الحالي يعكس، في حقيقة الأمر، مظهراً من مظاهر انتقام الأفكار المخذولة من الجانبين[٢].

إن نقطة تحول أي مجتمع من وضع متخلف إلى آخر متقدم يستدعي دخول ذلك المجتمع في دورة حضارية تستكمل شروطها المادية والمعنوية المتمثلة في عنصرين أساسيين هما **الإرادة الحضارية** و**الإمكان الحضاري**[٣]. وفي هذا الصدد لابد من استخدام المنهجية العلمية التي

---

(١) **ميلاد مجتمع**: ١٠٢ - ١٠٣.

(٢) انظر: **مشكلة الأفكار**: ٢١٦ - ٢١٧.

(٣) انظر: عبد اللطيف عبادة: **صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي**، دار الشهاب، الجزائر، ١٩٨٤م، ١٣٥.

يستخدمها الكيميائيون لتحديد العناصر المركبة للماء، وذلك بأن نحلل منتوجات الحضارة لنستخلص منها العناصر الأساسية التي أوجدتها. وقد توصل بن نبي في تحليله النظري لتلك المنتوجات إلى أن كل حضارة إنما تتكون من عناصر ثلاثة صاغها في المعادلة التالية:

إنسان + وقت + تراب = حضارة

الإنسان، العنصر الأهم

يحتل الإنسان مكاناً مركزياً في نظرية الحضارة عند بن نبي حيث يمثل «الجهاز الاجتماعي الأول... فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ»[١]، ولذلك فإن مشكلة العالم الإسلامي إنما تنبع من الإنسان المسلم وتعود إليه. ولهذا بحث بن نبي قضايا ذلك الإنسان من زواياها النفسية والاجتماعية والثقافية، آخذاً في الاعتبار العوامل التاريخية والسياسية ومولياً اهتمامه بالشروط والقوانين والسنن التي تؤهل هذا الإنسان لتغيير نفسه أولاً، ومن ثمّ تغيير مجتمعه وإيجاد دور لأمته في التاريخ.

إن الإنسان - أي إنسان - كما يرى بن نبي، يمثل قيمتين، أو كما يسميهما معادلتين؛ الأولى ثابتة لا تتأثر بالتاريخ، وهي كونه كائناً بشرياً حباه الله بالتكريم؛ والثانية متغيّرة ومتأثرة بالظروف المحيطة، وهي كونه كائناً اجتماعياً. تمثل الأولى التكوين العضوي البيولوجي، وتمثل الثانية الخصائص النفسية والذهنية التي تصوغها الظروف التاريخية والاجتماعية[٢]. والأخيرة هي التي تحدد مكانه في المجتمع والحياة

(١) **حديث في البناء الجديد**: ٥٠.
(٢) السابق: ٥٧.

والحضارة. فعلى امتداد التاريخ البشري تفاعل الناس مع الزمان والمكان، ليس بوصفهم مخلوقات طبيعية، وإنما بوصفهم كائنات اجتماعية؛ فالإنسان «لا يدخل العمليات الاجتماعية كمادة خام، بل يدخل في صورة معادلة شخصية صاغها التاريخ وأودع فيها خلاصة تجارب سابقة وعادات ثابتة»[١]. وهذا يعني أن الإنسان إلى جانب كونه صانع الحضارة فهو أيضاً أحد نتاجاتها.

ولكي يحدد بن نبي الشروط التي تتطلبها الحضارة والسنن التي تنظمها، فقد طرح سؤالين يتصلان بالكيفية التي يؤثر فيها الإنسان في هذه الحضارة، السؤال الأول هو: **كيف يؤثر الإنسان في محيطه الاجتماعي؟ أو بمعنى آخر ما هي الوسائل أو القدرات التي يؤثر الإنسان بواسطتها في مجتمعه ليحدد مكانه في هذا العالم؟**

والسؤال الثاني هو: **كيف يمكن توجيه هذه الوسائل والقدرات بطريقة تمكن من إنجاز حضارة؟**

تأمل بن نبي الطاقات الاجتماعية التي توجه الأفراد والمجتمعات فوجد أنها تتمثل في عناصر ثلاثة هي **اليد والقلب والعقل**؛ «فكل طاقة اجتماعية تصدر حتماً من دوافع القلب، ومن مسوغات وتوجيهات العقل ومن حركات الأعضاء»[٢]، ومن هذه العناصرمجتمعة تتولد **الفعالية** التي هي تعبير عن استيعاب الفرد لمسوغات وجوده، واجتهاده في تأكيد ذلك الوجود، ويحدث هذا غالباً عندما يدخل مجتمع ما في طريق الحضارة. وبالنظر إلى تلك العناصر فإن الإجابة عن السؤال الأول، كما يصوغها بن نبي، تكون بأن الإنسان يؤثر في محيطه الاجتماعي عن طريق ثلاث وسائل:

---

(١) السابق: ١١٣.

(٢) **تأملات**: طبعة ١٩٩١م، ٣٨.

أولاً بفكره ثانياً بعمله ثالثاً بماله

وانطلاقاً من هذه الفرضية، فقد رأى بن نبي أن التخطيط من أجل توجيه طاقات الفرد في اتجاه الحضارة يستلزم أولاً توجيه **الثقافة**، ثم توجيه **العمل** وتوجيه **المال**.

ويعرف بن نبي مصطلح التوجيه بأنه «تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت»[١] الذي ينتج عن تعدد الجهود الموجهة نحو الهدف نفسه والتي تفتقد التواصل والتنسيق فيما بينها. وهذا ما حدث لحركة النهضة عندما تضاربت وتشتتت جهود الإصلاحيين والتحديثيين حين أخفقوا في تحديد جوهر المشكلات وتحديد الوسائل والأهداف بدقة. كما يرى بن نبي أن للتوجيه ميزة أخرى، من حيث كونه عملية منضبطة تتطلب **التخطيط** الذي هو منهجية لازمة لشؤون العالم المعاصر، وبواسطته يمكن التأثير في الأوضاع النفسية والاجتماعية للمجتمع. بل إن التخطيط يساعد على الربط بين المشكلات بصورة منطقية ومنهجية قلما تسمح بها عادات المسلم الفكرية، وهو ما يؤدي إلى التسريع في العمليات الاجتماعية التي تقوم عليها الحضارة[٢].

إن توجيه قدرات الإنسان الرئيسة الثلاث **الفكر والعمل والمال** إنما يتم - في رأي بن نبي - من خلال توجيه **الثقافة** بالدرجة الأولى، وذلك بصفتها المؤثر الأكبر في حياة الإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً، وفي حياة المجتمع بصفته مؤسسة جماعية؛ فكلاهما منتج للثقافة وناتج عنها. ومن هذه الزاوية، فإن التخلف الذي يعانيه المجتمع المسلم ليس إلا نتيجة للخلل الذي أصاب الثقافة التي تؤدي وظيفة جوهرية؛ «فالثقافة هي الدم في جسم المجتمع، يغذي حضارته ويحمل أفكار النخبة كما يحمل أفكار

(١) **شروط النهضة**: ٨٣.

(٢) **حديث في البناء الجديد**: ١١٢.

العامة»[١]. لذلك فإن محاولة إصلاح أي مجتمع إنما تبدأ بثقافته، التي هي السبيل الأول إلى بلوغ الحضارة، «فليست الثقافة سوى تعلم الحضارة، أي استخدام ملكاتنا الضميرية والعقلية في عالم الأشخاص»[٢].

و**الثقافة** - كما يعرّفها بن نبي - هي «مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على ذلك هي المحيط الذي يشكل الفرد فيه طباعه وشخصيته»[٣]. كما يعرفها في مكان آخر بأنها «الجو المشتمل على أشياء ظاهرة كالأوزان والألحان والحركات، وعلى أشياء باطنة كالأذواق والعادات والتقاليد، بمعنى أنها الجو العام الذي يطبع أسلوبَ الحياة في مجتمع معين، وسلوكَ الفرد فيه بطابع خاص يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر»[٤]، والثقافة هي الإطار المرجعي للأفكار والأفعال التي تجمع بين راعي الغنم والعالم، جمعاً يبرز السمات المشتركة بينهما. ذلك أن الثقافة ليست ملكاً لطبقة معينة، بل إنها قاسم مشترك بين كل الطبقات حيث «تتدخل في شؤون الفرد، وفي بناء المجتمع، وتعالج مشكلة القيادة كما تعالج مشكلة الجماهير»[٥]. والثقافة على هذا النحو ليست علماً يتعلمه الإنسان «بل هي محيط يحيط به، وإطار يتحرك في داخله ويغذي الحضارة في أحشائه؛ فهي الوسط الذي تتكوّن فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر... بما في ذلك الحداد والفنان والراعي والعالم والإمام؛ وهكذا يتكون التاريخ»[٦].

---

(١) **شروط النهضة**: طبعة ١٩٩٣م، ٩٣.
(٢) **ميلاد مجتمع**: ٩٦.
(٣) **شروط النهضة**: ٨٣.
(٤) **حديث في البناء الجديد**: ٧١.
(٥) **شروط النهضة**: ٨٥ - ٨٦.
(٦) السابق.

وبالنظر إلى الإطار الفلسفي الذي يميز الثقافة في كل من الشرق والغرب، خلُص بن نبي إلى أن الثقافة عند المدرسة الغربية هي ثمرة الفكر الإنساني فهي تلخّص «فلسفة الإنسان»، في حين أنها عند المدرسة الاشتراكية ليست سوى ثمرة من ثمرات المجتمع، إذ تلخّص «فلسفة المجتمع»[١]. ويحاول بن نبي الاستفادة من تصور المدرستين، مع الاحتفاظ بمرجعيته التي تنتمي إلى نسقها الخاص، فنراه ينظر إلى الثقافة بصفتها واقعاً اجتماعياً ديناميكياً يتشكل عبر «مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه»[٢]، ليخلص إلى أن الثقافة مجال يضم فلسفة الإنسان وفلسفة المجتمع معاً، وفي إطارها تتفاعل العوالم الثلاثة: **عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء**، التي تترابط في شبكة من العلاقات الاجتماعية والثقافية التي تجسد تفاعلها؛ ذلك أن هذه العوامل، التي سبق شرح ديناميكيتها، لا تعمل منفصلة، وإنما تنتظم في علاقات حية متبادلة وفق صورة منسجمة مع نماذج صيغت في **عالم الأفكار** يتم تنفيذها عادة بوسائل مستمدة من **عالم الأشياء**، من أجل الوصول إلى غاية يحددها **عالم الأشخاص**[٣].

ويمضي بن نبي فيشرح أهمية الثقافة، مؤكداً أنها ذات تأثير بعيد في الإنسان، الذي هو نفسه نتاج الثقافة، كما أنها مؤثرة في المجتمع، الذي هو المصدر الذي تنبع منه هذه الثقافة، والذي يتشكل بواسطتها ويتحدد توجهه على أساسها. ولذلك ينبه على أن الثقافة إنما هي **نظرية في السلوك**

(١) **شروط النهضة**: طبعة ١٩٩٣م، ٨٨.

(٢) **مشكلة الثقافة**: ٧١.

(٣) **ميلاد مجتمع**: ٢٧.

وليست **نظرية في المعرفة**[١]. فهي خاضعة لأشياء أعم من العلم والمعرفة وأوثق صلة بالشخصية والسلوك الاجتماعي. ويشرح فكرته هذه فيضرب مثلاً بشخصين ينتميان إلى مجتمع واحد ويختلفان في الظروف الاجتماعية وفي الوظيفة، كطبيب إنجليزي وراعٍ إنجليزي، وشخصين آخرين متحدين في العمل والوظيفة والدرجة العلمية، ولكنهما ينتميان إلى مجتمعين مختلفين في درجة تحضرهما، كطبيب إنجليزي وآخر مسلم. حيث يكون سلوك الأولين تجاه مشكلات الحياة متماثلاً، إذ تتجلى فيه الثقافة الإنجليزية؛ في حين يختلف سلوك الشخصين الآخرين اختلافاً بيناً يعود إلى اختلاف الثقافة التي تتحكم في سلوك الرجلين وتميز مجتمعيهما أحدهما عن الآخر. فالتماثل أو الاختلاف في السلوك هنا إنما ينتج عن الثقافة لا عن العلم والمعرفة[٢].

وللثقافة - كما يرى بن نبي - معنى متجذر في التاريخ بما تتضمنه من فكرة دينية تمثل عنصرها الأساسي. وهي على ذلك ليست علماً يتعلمه الإنسان في المدرسة «فنحن لا نتلقى الثقافة وإنما نتنفّسها ونتمثلها بنفس الطريقة التي يتم بمقتضاها تنفسنا وتمثلنا لأكسجين الهواء»[٣]. إنها حصيلة متراكمة تكونت عبر مراحل زمنية متصلة انصهرت فيها عادات متجانسة وعبقريات وأذواق وعواطف. ولذلك فالثقافة، بعبارة جامعة، هي كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة ويحدد قطبيها المكونين من عقلية ابن خلدون وروحانية الغزالي في الحضارة الإسلامية، ومن عقلية ديكارت وروحانية جان دارك في الحضارة الغربية[٤].

---

(١) **شروط النهضة**: طبعة ١٩٩٣م، ٨٨.

(٢) السابق: ٨٩.

(٣) **آفاق جزائرية**: ١٠٠.

(٤) **شروط النهضة**: طبعة ١٩٩٣م، ٩٢.

بالإضافة إلى ذلك فإن للثقافة معنى آخر في التربية؛ فهي الدستور الذي تتطلبه الحياة العامة بكل ما تشمله من ضروب التفكير وألوان النشاط الاجتماعي الذي يجمع في إطاره الراعي والعالم جمعاً يوحّد بينهما فيما يبرز من قواسم مشتركة. والثقافة حسب هذا التصور ليست مجالاً متصلاً بالتعليم وإنما بالتربية. ولذلك يرى بن نبي أن السبيل إلى الحضارة إنما يبدأ بكل من الإنسان وثقافته، وذلك عن طريق تصفية الأنساق الفكرية، والموروثات الثقافية، وتنقية المفاهيم الاجتماعية والقيم الأخلاقية وهو ما يستدعي القيام بأمرين مهمين:

الأول يقتضي إحداث القطيعة مع رواسب الماضي ومع العناصر السلبية التي يضمها النسق الثقافي والاجتماعي، وبعث الحياة في الإيجابي منها. والثاني يقتضي الانفتاح على الأفكار الجديدة والقيم الإيجابية وتبنيها وإدخالها في ذلك النسق. ويرى بن نبي أن الفكرة الإسلامية عند نشأتها قد قامت بالعمليتين معاً وفي آن واحد حينما فنّدت الأفكار والمعتقدات الجاهلية، وأرست في الوقت نفسه دستوراً جديداً متكاملاً للحياة[١]. وقد قام توماس الأكويني في مطلع الحضارة الأوربية بالعملية الأولى حين حاول تصفية ثقافته المسيحية من التأثيرات الإسلامية التي فرضت نفسها، في حين قام ديكارت بالعملية الثانية حينما رسم للحضارة طريقها الموضوعي المؤسس على المنهج التجريبي الذي صار السبب المباشر في دفع تلك الحضارة[٢].

وإذا نظرنا إلى واقع المسلمين اليوم تبين لنا مدى انحسار العناصر الإيجابية في ثقافتهم، وما تعانيه مجتمعات المسلمين من أزمات على مختلف المستويات. ولذلك فقد نتفق مع بن نبي على أن هذه الثقافة يجب

(١) مشكلة الثقافة: ٦٨ - ٦٩.
(٢) السابق.

أن تمر بعملية تنقية شاملة من العناصر السلبية، وعملية بعث وشحن لمكوناتها الإيجابية، وهو ما عبر عنه بقوله: «وطالما ظل مجتمعنا عاجزاً عن تصفية هذه الوراثة السلبية التي أسقطته منذ ستة قرون، وما دام متقاعساً عن تجديد الإنسان طبقاً للتعاليم الإسلامية الحقة ومناهج العلم الحديثة فإن سعيه إلى توازن جديد لحياته، وتركيب جديد لتاريخه، سيكون باطلاً عديم الجدوى»[١]. وهو ما يؤكد على أن الإسلام - في نظر بن نبي - هو العمود الفقري لكيان الثقافة والحضارة الإسلاميتين، وأن الفكرة الدينية هي المعامل الذي يقوم بتركيب عناصر أي حضارة في مطلق الزمان والمكان. ولعله قد أسيء فهم هذه المنهجية العلمية التي نظر بها بن نبي إلى الحضارة من حيث كونها ظاهرة تاريخية كونية؛ فقد أشارت إحدى الدراسات إلى بن نبي واصفة إياه بأنه ذو نزعة إنسانية (Humanist) غير محدودة بحدود الإسلام، وإنما منسوجة بخيوط أديان عالمية أخرى[٢]. فالكاتب، كما يبدو، قد اطّلع على آراء بن نبي السياسية المضمنة في **فكرة الإفريقية الآسيوية** التي رأت إمكانية إنشاء علاقة بين ثقافات دول عدم الانحياز المتنوعة، فاعتبرها نزعة إنسانية متحررة من أي التزام عقائدي، متجاهلاً بذلك الأفكار الأخرى الأهم التي ارتكز عليها كتاب **فكرة كمنولث إسلامي** مثلاً، وهو ما يجعل استنتاجات الكاتب بعيدة عن الصواب على ما بذله من جهد أكاديمي.

لقد نظر بن نبي إلى قضايا الحضارة في وقائعها التاريخية وإطارها النظري الإنساني، فوجد أن للدين تأثيراً جوهرياً فيها، حتى إنه أطلق عليه مصطلح **المركّب** أو **المُعَامِل** الذي لا تعمل باقي العناصر من دونه.

---

(١) **وجهة العالم الإسلامي**: ٣٧.

(٢) انظر:

Allan Christelow, "An Islamic Huminist in the 20th Century: Malik Ben-nabi", **The Maghrib Review**, Vol 17, 1- 2, 1992, PP 69 - 83.

أما ما يخص بحثه لمشكلات الحضارة التي يواجهها المجتمع الإسلامي، فقد استخدم بن نبي النموذج الإسلامي بصفته معياراً (Paradigm)، مركّزاً فيه على مبدأ العدالة الاجتماعية الإسلامي ليخلُص إلى أنّ الفرد والجماعة يجب أن يعملا كل منهما لمصلحة الآخر، أو حسب تعبيره أن يكون «الفرد للمجموع والمجموع للفرد» على عكس ما هو سائد في المجتمع الغربي من أن «كل إنسان لنفسه والله للجميع»[١].

نظرت العلوم الاجتماعية إلى ظاهرة الحضارة فقسمتها إلى قسمين متكاملين؛ الأول مادي، وهو الذي تمثله المدنية بكل مظاهرها؛ والثاني غير مادي وهو الذي تجسده الثقافة. وقد ركّز بن نبي في معظم مؤلفاته على أهمية الثقافة والجوانب المعنوية في الحضارة فقدم **عالم الأفكار** على **عالم الأشياء** مؤكّداً أن ثروة المجتمع لا تقاس «بما يملك من أشياء بل بمقدار ما فيه من أفكار»[٢]، ولذلك فإذا انهار **عالم الأشياء** - جراء أي كارثة - فإن الأفكار لا تنتهي معه بل تبقى قادرة على إعادة بنائه. وقد سبق أن مثّل بن نبي لهذا بالمجتمع الألماني غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية، حيث بقيت ثقافته وفكره في قمة الاستجابة لذلك التحدي، فأعادت بناء عالم أشيائها بكل نجاح. وقد لاحظ بن نبي وجود نوعين من الأفكار داخل الثقافة؛ الأول يمكنه تغيير الأشخاص، وهو الذي يتزامن عادة مع إرهاصات الحضارة وبوادرها الأولى، والثاني يختصّ بتغيير الأشياء، وهو يتبلور في الطور الثاني من الحضارة[٣]. وهذا يعني أن الأول يظهر عندما تكون الحضارة في **مرحلة الروح**، في حين يتكامل الثاني عندما تصل الحضارة **مرحلة العقل** حسب تقسيم بن نبي السابق. وتنتظم الأفكار في إطارها الاجتماعي - خلال المرحلة الأولى - على

(١) وجهة العالم الإسلامي: ٨٨ - ٨٩.
(٢) ميلاد مجتمع: ٣٧.
(٣) مشكلة الأفكار: ٧٢.

نماذج مثالية عليا يسميها بن نبي **الأفكار المطبوعة**، ومنها يكوّن المجتمع عالمه الثقافي. ومثال ذلك ما حدث للمجتمع المسلم الأول الذي تأسست نماذجه المثالية ونسقه الخاص، وانصبغت قيمه الاجتماعية وأحداثه التاريخية بمبادئ هذا الدين.

لكنَّ أفكاراً أخرى ما تلبث أن تظهر بعد ذلك تسمى **بالأفكار الموضوعة**؛ وهي التي تتسلل من ثقافات أخرى أو تستعار أوتستحدث، فإذا استطاعت هذه الأفكار أن تنسجم مع النماذج المثالية للثقافة الداخلة عليها، فإنها تحرك الطاقات الكامنة فيها وتدفع المجتمع قدماً، أما إذا بترت تلك الأفكار من جذور ثقافتها الأصلية أو تنافرت مع **(الأفكار المطبوعة)** فإنها لا تؤدي إلّا إلى الفوضى والنشاز. ويشبه بن نبي ثقافة كل مجتمع بمقام موسيقي وأسطوانة متميزة عن كل ما عداها من الألحان، ذلك «أن أسطوانة كل مجتمع مطبوعة بطريقة معينة، والأفراد أو الأجيال يضيفون إلى هذه الأسطوانة نغمتهم الخاصة، وكأنها التوافقات الموسيقية الخاصة بالأنغام الأساسية»[(١)]، فإذا جاءت تلك الإضافات متضاربة وغير منسجمة مع الإيقاعات الموسيقية الأصلية، فإنها لا شك تحدث نشازاً ينتهي إلى الصمت، وفي هذه الحالة يفقد المجتمع دوافعه الجماعية وتفقد الأفكار الكبرى في ثقافته معناها وأثرها. وحينئذ تظهر **الأفكار الميتة**.

وبالنسبة إلى المجتمع المسلم فقد تأسست **الأفكار المطبوعة** لديه في عهد النبوة والخلافة الراشدة، في حين انتشرت **الأفكار الموضوعة** في عصور دمشق وبغداد، ثمّ عاد المجتمع بعد ذلك ليعيش في صمت **الأفكار الميتة**. ويمثل بن نبي لهذا النوع من الأفكار باللوحة التي يشاهدها الحاج معلقة على أحد الأبواب في مكة المكرمة مشيرة إلى (هيئة الأمر

(١) السابق: ٨٣.

بالمعروف)، ولكن إذا ما تقدّم الحاج خطوات داخل البلاد فإنه يلمس أن ذلك الإعلان لا يمثل سوى فكرة ميتة[١]. ويتعقد الوضع عندما تقوم محاولة إحياء عالم ثقافي مليء بأفكار ميتة عن طريق الاستعانة **بأفكار قاتلة**، وهي الأفكار المقتبسة من حضارة أخرى بعد أن اقتطعت من جذورها الثقافية الأصلية. وغالباً ما تكون تلك الأفكار قاتلة حتى وهي في بيئتها الأولى؛ أي إنها أدت إلى نتائج سلبية في محيطها الأصلي، فتصبح لذلك أفتك في المحيط الذي اقتبسها. وهذا هو الوضع الذي وجدت فيه المجتمعات المسلمة نفسها بعد أن حاولت النهوض عن طريق الاقتباس من الحضارة الغربية، دون أن تعرف بالضبط حاجاتها وما الذي يمكنها أو لا يمكنها اقتباسه. وذلك على عكس مجتمعات شرقية أخرى بدأت من النقطة نفسها مثل الصين واليابان[٢]؛ وهو ما جعل بن نبي يؤكد أنْ «ليس كل ما في ثقافة الغرب قاتلاً»[٣]، فالمعوّل عليه هنا هو انسجام العنصر المقتبس مع المنظومة الأصلية، أما الاقتباس العشوائي الذي يؤدي إلى التضارب والنشاز فقد أدى بالمجتمع المسلم إلى أن يدفع ثمن خيانته لنماذجه المثالية، إذ صارت كل الأفكار المخذولة - بما فيها المقتبسة - تعمل ضده لتنتقم منه[٤]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن **الأفكار القاتلة** لم تولد - كما لاحظ بن نبي - في باريس أو لندن، ولم تخرج من قاعات السربون أو أكسفورد، وإنما نشأت في فاس والجزائر، وفي تونس والقاهرة؛ أي تحت مآذن القرويين والزيتونة والأزهر، طوال قرون ما بعد التحضر حيث كانت (فيروساً) وراثياً عمل على تخدير حوافز الأمة الدفاعية. وتعتبر هذه

(١) السابق: ٩٠.
(٢) السابق: ٩١.
(٣) السابق: ٢٠٣.
(٤) السابق: ٩٢.

الأفكار أفتك وأقدر على القتل من الأفكار الأخرى[١]. إذ تعمل على جذب الجرثومة الأجنبية وامتصاصها؛ بمعنى أن **الفكرة الميتة** هي التي تجذب **الفكرة القاتلة** وتناديها، وعلى هذا الأساس لا يجوز لنا أن نسأل «لماذا تنطوي الثقافة الغربية على عناصر قاتلة، وإنما يجب أن نسأل لماذا تقصد الصفوة المسلمة هذه العناصر بالذات وتأخذ منها»[٢]، فالمشكلة المثارة هنا «لا تتعلق بطبيعة الثقافة الغربية، وإنما بالطبيعة الشاذة لعلاقتنا بها»[٣]؛ ذلك أن حالة الانحطاط الكامنة في روح عصر ما بعد التحضر تتجه إلى نفايات الحضارة الغربية، فهي لا تستطيع أن ترى جوهر تلك الحضارة، وإنما ترى كل ما هو تافه أو غامض أو قاتل.

ومن جهة أخرى، فإن سجل تاريخ الأفكار يطرح أمامنا حقيقة جديرة بالانتباه وهي «أن **الفكرة الصادقة** ليست دائماً فعالة، [كما أن] **الفكرة الفعالة** ليست دائماً صادقة»[٤]، وهي إشكالية فلسفية وأخلاقية مؤثرة في المنحى التاريخي والحضاري للمجتمعات البشرية. وكما يلاحظ بن نبي فقد رجحت الحضارة الأوربية قيمة الفعالية على قيمة الصدق والأصالة، ولذلك فقد اختلط على النخبة المسلمة التي تربت في الجامعات الغربية مظهران متمايزان للفكرة الواحدة هما: صدقها وفعاليتها؛ فلم يروا فيها إلا وجهاً واحداً، ولم يدركوا أن عالم الثقافة الأوربية ذو وجهين؛ وجه ينظر إلى ذاته ليطبق أخلاقيات ومبادئ خاصة به، ووجه ينظر إلى العالم ولا يهتم بشيء غير الفعالية والمصلحة[٥].

---

(١) السابق: ٢٠٠ - ٢٠١.
(٢) السابق: ٢٠٢.
(٣) السابق: ٢٠٥.
(٤) السابق: ١٣٥.
(٥) السابق: ١٤٠.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن لبن نبي مفهوماً مميّزاً **للفعالية** باعتبارها عملية ديناميكية لمواجهة الصعوبات وحل المشكلات ووضع الخطط. فهي وسيلة من وسائل تغيير النفس، وهي أداة ضرورية للإقلاع الحضاري. وهو يؤكد في هذا السياق أنه ينبغي للفكرة الإسلامية وهي تواجه الأفكار الفعالة التي تصدر عن المجتمعات المتحضرة المعاصرة، أن تسترد فعاليتها الخاصة لتأخذ مكانها بين الأفكار التي تصنع التاريخ[١]؛ إذ «لا يكفي أن نعلن عن قدسية القيم الإسلامية، وإنما يجب أن نعطيها ما يجعلها تستطيع أن تواجه به روح العصر»[٢]، وهو ما يعني عند بن نبي «أن نعيد روح الإسلام ذاتها إلى الوجود»[٣].

المشروع الثقافي

عندما تبين لبن نبي أن **الثقافة** عامل فاعل في العملية الحضارية وبحث في جوانبها المختلفة، لم يكتف بتشخيص عناصرها المعيقة ونقائصها المثبطة، وإنما تجاوز ذلك إلى اقتراح برنامج متكامل يمكّن من شحن عناصرها الحية الإيجابية، من أجل وضع المجتمع على عتبة دورة حضارية مدروسة ومخطط لها بطريقة منهجية. وقد قدّم الخطوط العريضة لهذا المشروع في أكثر من كتاب في محاولة لوضع تصوره للإقلاع الحضاري على محك التجربة العملية والتنفيذ، حيث قام بعرض مجموعة من الأفكار والمفاهيم التي رأى أن من شأنها توظيف طاقات المجتمع في حركة منظمة متكاملة الجوانب. وقد فصل في أربعة عناصر مهمة من شأنها أن تبعث في **الثقافة** القدرة على تحقيق غايات النهضة والتحضر، هي:

(١) السابق: ١٤٤.
(٢) السابق: ١٤٧.
(٣) السابق: ١٤٨.

١- **الدستور الخلقي.**

٢- **الذوق الجمالي.**

٣- **المنطق العملي.**

٤- **الصناعة.**

وهي مجموعة من العناصر التي تعمل في إطار ثقافة المجتمع لتؤسس برنامجاً تربوياً توظف فيه القيم الخلقية من أجل تكوين الصلات الاجتماعية والثقافية التي يتفاعل خلالها عالما **الأشخاص والأفكار**، ويراعى فيها عنصر **الجمال** لتكوين الذوق العام، ولتحسين الأعمال وإتقانها، كما يستخدم فيه **المنطق العملي** لتحديد أشكال ومسارات النشاط العام وتحقيق الهدف من كل عمل، أما **الصناعة** فتعنى بجانب الفنون التطبيقية الملائمة واللازمة للمجتمع[١].

الدستور الخلقي

تمثل الأخلاق والقيم السلوكية مكاناً مركزياً في مشروع بن نبي الثقافي، وهو لا يتناولها من الزاوية الفلسفية النظرية بل من الناحية الاجتماعية العملية؛ ولذلك لا يرى أن العناصر المادية وغير المادية يمكنها أن تصنع ثقافة دون وجود المبدأ الأخلاقي الذي يعدّ «ضرورة منطقية اجتماعية» وشرطاً أساسياً من شروطها[٢]. ولا شك أنه يشير هنا إلى الفكرة الدينية التي تبنى عليها الثقافات بدرجات متفاوتة؛ وعليه فإن فعالية المجتمع تزيد وتنقص تبعاً لقوة ذلك المبدأ ودرجة تأثيره في وجدان الناس؛ فهو العنصر الذي يقوم عليه بناء **عالم الأشخاص**، الذي لا يقوم

(١) شروط النهضة: ٩٣.

(٢) حديث في البناء الجديد: ٧١.

من دونه عالما **الأفكار** و**الأشياء**. ومن ناحية أخرى فإن القيم الخلقية تعد عنصراً جوهرياً في النشاط المشترك الذي يقوم به أفراد المجتمع، والذي تنظمه **شبكة العلاقات الاجتماعية** التي ترتبط بتلك القيم ارتباطاً عضوياً لدرجة أنه «كلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه»[١].

وللمبدأ الخلقي جذور عميقة تربطه بالدين، وهو الأساس الذي تقوم عليه ثقافة أي مجتمع مهما ابتعد عن الدين، «إذ لا يوجد عالم ثقافي وضعي محض»[٢]. وقد اتفق علماء النفس والاجتماع الذين وصفوا الإنسان بأنه (حيوان) ديني على أن عنصر الدين يتدخل تدخلاً مباشراً في تكوين «(الأنا) الواعية عند الفرد»[٣]، ومن ثمّ فهو ينظم علاقة الإنسان بربه وبالآخرين، بل إن العلاقة التي تربط الفرد بالمجتمع «هي في الواقع ظل للعلاقة الروحية في المجال الزمني»[٤]؛ أي في إطار الواقع والتاريخ. وعلى ذلك، فالمبدأ الأخلاقي هو الذي يكوّن الضمير، ويشكل المثل العليا، ويكيّف الغرائز، ويهذب المصالح، وينظم شبكة العلاقات الاجتماعية والثقافية، بحيث تكون الثقافة بجميع عناصرها المكونة مجموعة من القواعد الأخلاقية والجمالية[٥]. وحيث إن تلك القواعد هي مصدر الفضائل في حياة المجتمع، فقد أقامت الشريعة الإسلامية نظام الحسبة للمحافظة على تلك الفضائل ولمراقبة استمرار فاعليتها في الحياة الاجتماعية[٦]، وهي جهاز للرقابة الذاتية كان يجب تطويرها وتقنينها

---

(١) **ميلاد مجتمع**: ٥٣.
(٢) **مشكلة الأفكار**: ٧٢.
(٣) **ميلاد مجتمع**: ٧٢.
(٤) السابق: ٥٧.
(٥) السابق: ٣٢.
(٦) **مشكلة الأفكار**: ١٧٨.

والاستفادة منها. ويرى بن نبي أن الشعوب الساميّة عامة قد أسست ثقافتها على القواعد المتبعة من القيم الأخلاقية، في حين أسست الشعوب الآرية حضارتها على القيم الجمالية التي تهتم بالصورة والشكل[١]. ولا يعني ذلك أن حضارة تلك الشعوب قد تجرّدت من المبدأ الأخلاقي؛ فهي قد نشأت على أساس الفكرة المسيحية كما سبق أن شرح لنا بن نبي، ولذلك فإن العلوم والفنون والصناعات التي أنتجتها الحضارة الغربية ما كانت لتوجد لولا ذلك الأساس الخلقي الذي قامت عليه **شبكة العلاقات** التي ربطت بين علماء أوروبا أو الغرب، ووحدت بين جهود علماء ومخترعين ألمان وروس وفرنسيين وإيطاليين وأمريكيين[٢]، وقد كان ذلك الأساس الخلقي واضحاً وقوياً في حقبة ما قبل الاستعمار، أما بعدها، فإن العقل الغربي كما يراه بن نبي، عقل ذاتي وأناني لا تشع فضائله الغربية على الآخرين من خارج حدوده، بل إنه خارج الحدود الأوربية لا يكون إنسانياً، بل أوربياً، حيث لا يرى في هذا العالم أناساً بل مستعمَرين. ولذلك فإن علاقاته معهم لا تتم إلا على المستوى الاقتصادي أو السياحي أو الاستراتيجي[٣].

أما بالنسبة إلى وضع العالم الإسلامي الراهن فإن هناك انفصالاً بين العنصر الروحي الذي يغذي الجانب الأخلاقي، والعنصر الاجتماعي الذي يحدد السلوك؛ أي انفصال للمبدأ عن حياة الفرد المسلم، مما يجعله «لا يحتفظ باستقلاله الأخلاقي ابتداء من اللحظة التي يغادر فيها المسجد حيث يسقط تحت سطوة قانون العدد، وبدلاً من أن يؤثر في الوسط طبقاً لمبادئه ومثله الأعلى نجد أن الوسط هو الذي يؤثر عليه فيجرده من مثله

---

(١) آفاق جزائرية: ١٠٨.

(٢) شروط النهضة: طبعة ١٩٩٣م، ٩٦.

(٣) الفكرة الإفريقية الآسيوية: ٤١ - ٤٢.

الأعلى ويهدم مبادئه»[١]، كما أن أبسط قراءة لواقع المجتمع الإسلامي تؤكد أن الإسلام بوصفه حقيقة، وأن **الدستور الأخلاقي** بوصفه مجموعة من القيم والقواعد السلوكية يفتقدان الإشعاع المؤثر في حياة المجتمع، إذ أصبحت الحقيقة غير ملهمة للنشاط ولا دافعة للتطور والتغير، بل صارت عاملاً من عوامل الركود والجمود والتخلف، وأمسى المجتمع غير قادر على زيادة جهده إلى الدرجة اللازمة لنهوضه. وقد نتج عنه ما أسماه بن نبي **بالشلل الأخلاقي** الذي يعاني منه المسلمون، وذلك بسبب الكف عن النمو النفسي والتكامل الخلقي الذي نتج حتماً عن عدم تعديل شرائط الحياة وعن عدم التفكير في وسائل ذلك التعديل[٢].

لذلك فإن من أهم وسائل تنقية الثقافة وتغيير الإنسان والمجتمع النظر إلى المبادئ السلوكية وبعث الروح فيها عن طريق إعادة هيكلة **الدستور الأخلاقي** الذي ينظم علاقات الناس بعضهم ببعض، ويقوي **شبكة العلاقات الاجتماعية**، ويحرك العوالم الثلاثة اللازمة للنهضة.

الذوق الجمالي

مثلما تحتاج الثقافة الفعالة إلى نزعة أخلاقية تغذيها وتوجهها، فهي تحتاج أيضاً إلى **ذوق جمالي**، وحس فني وقدرة على الابتكار والإبداع؛ فالذوق هو الذي يبعث في الإنسان «نزوعاً إلى الإحسان في العمل وتوخياً للكريم من العادات»[٣]، و**الذوق الجمالي** يرتبط ارتباطاً وثيقاً **بالمبدأ الأخلاقي** من حيث إنه أيضاً عنصر من العناصر المكونة والمحركة

(١) ميلاد مجتمع: ١١٢.
(٢) وجهة العالم الإسلامي: ٩٤.
(٣) شروط النهضة: طبعة ١٩٩٣م، ٩٨.

للثقافة، ولأنه يحفز الهمم إلى ما هو أبعد من المصلحة[١]، **والذوق الجمالي** إذا ارتبط **بالمبدأ الأخلاقي** فإنه يكون أبعد أثراً في تهذيب النفوس وتربيتها. وقد نبه النبي ﷺ إلى أهمية الإحسان في العبادة والفكر والعمل، وجعله مرتبةً أعلى من الإسلام والإيمان. وقد عرف عنه ﷺ استخدامه أسلوب التعريض عندما كان يريد انتقاد بعض القيم السلبية حرصاً منه على عدم ذكر أسماء مرتكبيها، فكان يقول: «ما بال قوم يقولون كذا أو يفعلون كذا». وعليه فحين يكون المبدأ الأخلاقي ضرورياً للعمل من حيث دوافعه وغاياته، يكون العنصر الجمالي لازماً لصورته وفاعليته[٢]. ولذلك فإن أي حركة تبتغي طريق الحضارة لابد أن تعمل على ترقية ذوقها الجمالي كما عملت على تأسيس دستورها الأخلاقي؛ ولشرح ذلك وضع بن نبي المعادلة التالية:

مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = توجه حضاري

لافتاً النظر إلى أن الترتيب الذي ينظم هذين العنصرين هو الذي يحدد خصوصية حضارة عن أخرى تاريخياً، وقد نتج عن هذا الترتيب ظهور نموذجين من المجتمعات، تأسس النشاط الاجتماعي عند أحدهما على القيم والدوافع الجمالية، وتأسس نشاط الآخر على القيم والدوافع الأخلاقية، وتمثل النموذج الأول **الثقافة الغربية** التي ورثت ذوقها الجمالي من التراث اليوناني والروماني، وتمثل الثاني **الثقافة الإسلامية** التي ورثت من التراث السامي الشغف بالحقيقة[٣]. ويلاحظ بن نبي أن علينا مراعاة الجمال في نفوسنا وبيوتنا وشوارعنا ومقاهينا، ويجب علينا ألا نسمح بأقل نشاز في حياتنا يصيب الأصوات والألوان

(١) **تأملات**: ١٤٦.

(٢) السابق.

(٣) **شروط النهضة**: طبعة ١٩٩٢م، ١٠٨-١٠٩.

والروائح؛ فالجمال هو الإطار الذي تتكون فيه الحضارة. ولا تفوته هنا الإشارة إلى أن المجتمع الإسلامي لم يعد يملك الدرجة نفسها من **الذوق الجمالي** الذي كانت تتمتع به ثقافته في الماضي، ذلك أن الطفل الفقير الذي يرتدي كساءً قذراً وأسمالاً بالية، فإن الخروق التي في ثيابه إنما تعكس في الحقيقة خروقاً في نسيج **الثقافة** التي ينتمي إليها، وهو ما تؤكده أبواق السيارات الصاخبة في شوارع مدننا وقرانا[١]. ولذلك فإن تنمية الذوق الجمالي بين الناس واعتماده في التربية والثقافة إنما هو دفع لها في طريق التحسين والتغيير، اللذين يعتبران من أهم مقومات التنمية والتحضر.

المنطق العملي

لا تتم عملية توجيه الثقافة التي يقترحها بن نبي إلا بإدخال عنصر ثالث مهم يسميه **المنطق العملي** والذي يعني «كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه» بطريقة يتمكن الإنسان بها «من استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة»[٢]؛ أي إنه المنطق البرجماتي النفعي المحكوم بالمبدأ الأخلاقي المشروح آنفاً. وهو الذي يفترض أن يكون مصدر **الفاعلية** التي هي أحد الشروط التي تهيئ المجتمع لمواجهة مشكلات التخلف، وتعديل أسلوب الحياة بطريقة تأخذ في حسابها الوسائل المتوفرة والزمن المحدد. والمنطق العملي يعلمنا «كيفية ربط العمل بوسائله ومقاصده، وذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئاً دون مقياس يستمد معاييره من الوسط الاجتماعي»[٣].

---

(١) السابق: ٩٨.

(٢) السابق: ١٠٢.

(٣) السابق.

وإذا نظرنا إلى واقع مجتمعاتنا المسلمة وجدنا أنها تفتقد **الفاعلية** في فكرها وفي سلوكها اليومي، كما تفتقد «الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه، بين سياسة ووسائلها، بين ثقافة ومثلها، بين فكرة وتحقيقها»[١]، و**الفاعلية** هي في الحقيقة روح **المنطق العملي** لأنها هي التي تشكل وتحدد موقف الفرد تجاه مشكلات حياته وصعوباتها، وتمكنه من إدراك أسبابها ونتائجها، وتساعده على اكتشاف الطريقة التي يسيطر بها عليها وذلك بما تبعثه فيه من إرادة لتغيير الأشياء والظروف تغييراً ينشط وظيفته الاجتماعية. والحياة - كما يؤكد بن نبي - لا تخطئ في صياغة المشكلات؛ لأن النتائج التي تتمخض عنها تكون حتماً مطابقة للمسببات[٢]، ولذلك فإن مواقف الأفراد من هذه المشكلات، وقدرتهم أو عدم قدرتهم على صياغتها فكرياً، واستعمال أقصى الإمكانات المتاحة لحلها هو المقياس الذي يحدد توجه مجتمعهم نحو الحضارة أو تنكبه عنها. إن هذه الفعالية التي هي روح المنطق العملي من شأنها أن تنتج لنا **العقل التطبيقي** الذي يتجسد في الإرادة وبذل الجهد والمثابرة عليه من أجل تحصيل علم أو اكتساب مهارة، ومن أجل تنمية العقل وتفتيح الذهن وتحقيق الأهداف. إن هذا النوع من العقلية قليل في عالمنا الإسلامي. ومشروع بن نبي للتجديد الثقافي والحضاري يؤكد أهمية هذا العنصر في أي ثقافة تريد أن تجمع بين أصالتها وعصريتها ليكون لها مكان في التاريخ ولتكون خططها التنموية شاملة ومدروسة.

الصناعة

وهو مصطلح قديم استخدمه ابن خلدون في مقدمته. وقد قصد به بن

---

(١) **شروط النهضة**: طبعة ١٩٩٣م، ١٠٣.

(٢) **حديث في البناء الجديد**: ٤٧.

نبي «كل الفنون والقدرات والمهن وتطبيقات العلوم»[١] ليشمل كل الوسائل الفنية التي تكسب الفرد والمجتمع القدرة على تحقيق مهام اجتماعية ومستلزمات معيشية في إطار فن صياغي يجسده العمل المستمد من العلم التخصصي الذي يشمل فن الراعي كما يشمل فن العالم على السواء[٢].

وقد اقترح بن نبي في هذا السياق، إنشاء مجلس للتوجيه المهني والإعداد والتربية المهنية. وإذا كانت **الصناعة** بهذا المعنى وسيلة لكسب العيش بالنسبة إلى الفرد، فإنها بالنسبة إلى المجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه[٣]. والصناعة من حيث إنها طرائق فنية لإنجاح مهام تتعلق بحياة المجتمع، فهي تحقق له الاكتفاء الذاتي واستخدام طاقاته المتاحة بطريقة علمية منهجية تحقق الدرجة القصوى من الإتقان المهني والمهارة الفنية. ويشير بن نبي إلى أن الرعي صناعة، وعلى تواضع هذه المهنة وبساطتها، فإن لها في مدينة (رامبوليه) بضواحي باريس مدرسة لتأهيل الرعاة، ولذلك فلو قارنا بين راعٍ من خريجيها وراعٍ من مجتمعنا حين يقود كل منهما قطيعه، لتبين لنا الفرق[٤]!.

وضع بن نبي مخطط مشروعه الثقافي في النصف الأول من القرن الماضي، حين تحقق استقلال عدد من الدول الإسلامية. ولذلك فهو لم يتوسع في مفهوم الصناعة ليشمل التقنيات الحديثة التي كانت قد بدأت بوادرها حينذاك، والتي كان واعياً بها تمام الوعي كما يظهر في كتبه، ولعله لم يكن يهدف إلى القفز بالمجتمع المتخلف إلى مرحلة التصنيع التي هي نتيجة للتقنية المتقدمة، إذ كان ينقص المجتمعات المسلمة آنذاك أبسط

(١) **شروط النهضة**: ١٠٤.
(٢) **آفاق جزائرية**: ١١٤.
(٣) **شروط النهضة**: ١٠٤
(٤) السابق.

التنظيمات الفنية والقدرات المهنية. وحتى الآن، مازال على هذه المجتمعات أن تحدد أولوياتها في هذا المجال، خاصة أن تيار العولمة المكتسح يشترط علينا التفكير والتخطيط والفعالية؛ أي الشروط نفسها التي وضعها بن نبي للتحضر.

كان الإنسان في فكره وسلوكه وثقافته، هو البؤرة التي تتركز فيها متطلبات الحضارة حسب نظرية بن نبي، الذي كان في جميع مؤلفاته باحثاً عن سننها وقوانينها وعوامل ازدهارها وانحطاطها، ومحاولاً تشخيص العلل التي تعاني منها الأمة، واكتشاف وسائل معالجتها. ولقد توصل إلى أن الإنسان هو مكمن الداء ومصدر الشفاء في الوقت نفسه، ولذلك فقد بحث أوضاعه الاجتماعية والثقافية والنفسية، آخذاً في الاعتبار ظروفه التاريخية والسياسية والاقتصادية، وخلص إلى أن **الثقافة** هي العامل المتحكم في كل ما عداه، وأنها الوسيلة التي يتم عن طريقها تغيير الإنسان العنصر الأول في نظرية الحضارة مما يجعل العنصرين الآخرين **التراب والوقت** ثانويين بصفتهما المجال الذي تتجلى فيه عبقرية الإنسان.

التراب

لقد اختار بن نبي مصطلح **التراب** وفضله على مصطلح **المادة** تفادياً للّبس الذي قد يسببه الأخير والذي يعني مفهوماً مقابلاً للروح في مجال علم الأخلاق، ويعني مفهوماً مضاداً لمعنى **الطاقة** في مجال العلوم، كما يعني شيئاً مناقضاً للمثالية في مجال الفلسفة[١]. وقد اختار مفردة التراب عن قصد لما تحمله من دلالات اجتماعية تتعلق بناحية الملكية

(١) انظر **شروط النهضة**: هامش ص ٤٩.

وتشريعاتها القانونية التي تتصل بتحقيق الضمانات الاجتماعية للفرد، كما تتعلق بناحية السيطرة الفنية المتصلة بعلوم الجيولوجية والكيمياء والهندسة، وطرائق الاستخدام الفني الأخرى[١].

ومن ناحية ثانية، يتسع مفهوم **التراب** ليشمل كل ما فوق الأرض وما في بطنها من ثروات وموارد طبيعية، فهو يحمل دلالات المواد الخام الأساسية التي يمكن لأي دورة حضارية أن تبدأ منها. و**التراب** يتصل بالإنسان في أكثر من ناحية، فهو عنصر من عناصر تخلقه الأول، ثم إنه يمثل له السكن والوطن ويرمز إلى العالم وإلى كوكب الأرض، مسرح استخلاف الله للإنسان، ومكان أداء رسالته.

إن المجتمع - كما يرى بن نبي - هو المصدر الذي يمنح **التراب** قيمته الاجتماعية، هذه القيمة المستمدة من درجة تقدم المجتمع أو تخلفه، هي التي تجعل من **التراب** مجالاً فنياً مسخراً لمصلحة الفرد والجماعة، أو فضاءً مهملاً معطلاً. والمجتمع المتحضر هو القادر على تحويل **التراب** من شكله الخام إلى شكل معدّل فنياً بحيث يحقق الفائدة القصوى منه.

وقد لاحظ بن نبي في مسقط رأسه تبسة انتشار ظاهرة التصحر التي بدأت زحفها من جنوب البلاد. كما أشار إلى أنه قد كان يوجد في الشمال الإفريقي قبل ألف سنة قرابة سبعة ملايين هكتار من الأراضي الخصبة المشجرة التي لم يبق منها إلا ثلثها. أما في حالة تبسة، فقد انخفض عدد سكانها من ١٨٠ ألف نسمة إلى ٤٠ ألفاً فقط. وقد اقترح بن نبي معالجة مشكلة التصحر بغرس مئات الملايين من الأشجار، لكنه يعود فينبه إلى

---

(١) **حديث في البناء الجديد**: ١٠٠ -١٠١.

أن الانتصار على هذا التصحر، الذي تعاني منه معظم الدول الإسلامية، لن يتم إلا إذا انتصر الفرد على نفسه الخاملة الكسولة وجعل من الشجرة رمزاً لإرادته وإصراره على البقاء[١].

الوقت

هو العنصر الثالث في نظرية الحضارة. وللوقت قيمة اجتماعية يمنحها له الإنسان؛ إذ يصير في أمر ما (ثروة) وفي آخر عدماً. ولكن ما إن تظهر ساعة خطرة في التاريخ حتى تبعث غريزة البقاء الكامنة عند الإنسان في وقته الروح وتمنحه قيمة، فينتفي عنه العدم ليصبح جوهر الحياة الذي لا يقدر بمال. وفي ظروف أخرى يصبح الوقت المتجسد في (ساعات العمل) عملة ذهبية لا تستطيع قوة في العالم أن تلغي دقيقة منها، كما لا تستطيع أن تسترد تلك الدقيقة إذا ما انقضت. وفي هذه الحالة التي تتجسد فيها الفعالية يتحول الوقت من ساعات تمر إلى ساعات تثمر[٢].

ويعد بن نبي الوقت عاملاً مؤثراً في الفكر والنشاط الإنسانيين، وفي تكوين المعاني وتطوير الأشياء. يقوم المجتمع المنخرط في أي دورة حضارية بتكييف الوقت وتحويله إلى زمن اجتماعي مثمر حين يدرجه في تخطيط المشروعات الصناعية والاقتصادية وتنفيذها، بصفته ركيزة من ركائز اطراد تلك المشروعات وتحققها[٣]. وفي مشروعه الحضاري يشير بن نبي إلى أنه يتحتم علينا ألّا نقتصر على عمل شيء

(١) شروط النهضة: ١١٤.
(٢) السابق: ١٤٥.
(٣) آفاق جزائرية: ١١٢.

ما، وإنما إنجازه في أقصر مدة ممكنة من الوقت، ويجب أن تتوفر في ذلك العمل شروط **الفعالية** في عالم يسيطر عليه مفهوم سرعة الإنتاج منذ أن تبنى منهج فردريك تيلور الذي ينظم خطوات العمل وعدد الحركات اللازمة من أجل الحصول على النتائج بأقل جهد ممكن وفي أقصر وقت.

ومما يؤسف له أن الوقت ليس ذا قيمة عند المسلمين، مع أن الإسلام يدعو إلى النظر في قيمة الزمن على المستوى الفردي والجماعي على السواء، وينهى عن تبذير ساعات العمر على ما لا فائدة منه في الدنيا والآخرة. ولكن الوظيفة الاجتماعية للدين قد ضعفت مع الزمن، ولم يعد سلوك المسلمين ومعاملاتهم تعكسان قيم الإسلام في حياتهم اليومية، ومن أعظم هذه القيم الضامرة قيمة الوقت. وإذا كان لزاماً على المسلمين الأخذ **بالمنطق العملي**، فلابد لهم من إعطاء الوقت قيمته اللازمة لذلك المنطق، وتربية أنفسهم على نوع من العمل التطوعي الذي يجب أن يقوم به الرجال والنساء والأولاد، وذلك بتخصيص نصف ساعة من أوقاتهم لأداء واجب معين بطريقة منتظمة وفعالة، حتى تتكون لديهم في مدى عام واحد حصيلة هائلة من ساعات العمل التي تعود بالفائدة على الحياة الفكرية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية.

يخلص بن نبي إلى أن إحياء عناصر الثقافة الحية والإيجابية بتربية الإنسان على التفكير المنظم، واتباع **المنطق العملي**، وممارسة **الفعالية**، سيؤدي حتماً إلى خلق الفرد المؤثر في الحياة والتاريخ وهو ما سيؤدي حتماً إلى طريق الحضارة. إن جوهر فكر بن نبي الحضاري يتلخص في أنه لكي تؤدي الأمة الإسلامية رسالتها المنوطة بها فلا بد أن توجه كل طاقاتها الفكرية إلى فحص تراثها الثقافي وتنقيته. وما دامت توفرت على

أرضها عناصر الحضارة الثلاثة: **الإنسان والتراب والوقت** «فإن قوة التركيب لعناصر التاريخ خالدة في جوهر الدين، وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ»[١]، ذلك أن أثره في النفوس يمكن «أن يتجدد ويستمر ما لم يخالف الناس شروطه وقوانينه»[٢].

هكذا صاغ مالك بن نبي نظريته في الحضارة، وفصّل في رؤيته للدورة الحضارية في إطارها الإنساني العام، والإسلامي الخاص؛ مؤكداً في كل مفصل من مفاصلها أن مشكلة أي شعب إنما هي في الحقيقة مشكلة حضارته. وقد استندت هذه الرؤية أولاً إلى خصائص نسق أمتنا الثقافي الذي تتفاعل فيه عوالم الأشياء والأشخاص والأفكار. كما استندت إلى السنن النافذة في دورات الاستخلاف، وعمارة الأرض، وإقامة مجتمع يؤثر في التاريخ ويؤدي دور الشهادة العالمية. وليس هناك لهذه الأمة من سبيل للإقلاع الحضاري سوى سبيل تغيير النفس وتزكيتها وتطويعها للرقي في مدارج العلم والعمل والحكمة، فإن تنكبنا الطريق زمناً طويلاً فلأننا لم ننتبه لهذه الحقيقة الجوهرية التي هي القطب الذي تجمعت حوله جميع مؤلفات بن نبي وفكره الحضاري.

---

(١) **شروط النهضة**: ٦٥.

(٢) السابق.